هكذا عرفت البكر وصدام: رحلة 35 عاما في حزب البعث (13)

اعضاء الوفد للصين بالغوا في شراء الهدايا.. واخطبوط على شكل باذنجان محشي وثوب وزيرة مصنوع من الصخر

عماش كان شخصية متواضعة وبشوشا دائما.. عدم اهتمامه بالمناصب الكبيرة سهل الانقضاض عليه

اعدها: هارون محمد*

رحلة العجائب عبر سيبيريا الى كوريا الشمالية

كان تسويق النفط المنتج وطنيا على سلم الأولويات بعد تولي البعث السلطة مباشرة، كما شكل الصدارة في العلاقات التجارية الدولية. وهكذا تحرك العراق تحركا واسعا نحو العديد من الدول الصديقة لعقد اتفاقيات تجارية وإبرام القروض ضمن اتفاقيات التعاون الاقتصادي والفني، وتم إدخال النفط العراقي مادة مستقلة في التبادل التجاري وسداد القروض المقدمة للعراق لبناء مشاريعه التنموية. وكانت كوريا الشمالية ضمن هذا التحرك حيث أعطى مجلس قيادة الثورة الضوء الأخضر وتشكل الوفد العراقي برئاستي في تشرين اول (اكتوبر) 1971.

تضمنت المهمة إضافة عنصر جديد يدخل لأول مرة لاعتبارات تخص كوريا الشمالية، يتمثل بتقديم العراق قرضا لكوريا لبناء مصفاة لتكرير النفط هناك للاستهلاك المحلي بشرط استخدامها النفط الخام العراقي، الى جانب دخول النفط العراقي مادة في التبادل السلعي بين البلدين. فقد كانت كوريا الشمالية، آنذاك، بحاجة لتوسيع طاقة التصفية فيها الى جانب مشاريع التصفية التي كانت كوريا متفقة مع الصين لبنائها. يكشف دخول العراق في هذا الباب الجديد ـ تقديم قرض لبناء مصفاة ـ عن مدى تشبث القيادة بتسويق النفط في تلك الفترة حتى وإن كانت الطريقة صعبة او محاطة بمخاطر.

تحرك الوفد من بغداد الى براغ اولا، ومنها الى موسكو حيث بدأت رحلتنا بطائرة ركاب سوفييتية من نوع (إليوشن) باتجاه عاصمة كوريا الشمالية بيونغ يانغ، حيث كانت الرحلة عبر سيبيريا الشاسعة أشبه ما تكون برحلة العجائب. فبعد مغادرة الطائرة موسكو كان عليها التوقف مرتين للتزود بالوقود بعد طيران دام نحو ست ساعات في كل مرة، وبذلك قطعت الطريق الطويل على ثلاث مراحل، حيث قضينا النهار في موسكو، وأمضينا الليلة كلها فوق سيبيريا، ووصلنا بيونغ يانغ بعد ظهر اليوم التالي.

المفاوضات في بيونغ يانغ

توجهنا الى بيت صغير للضيافة يقع على حافة المدينة، وكنا نعبر دوما على قنطرة صغيرة تكفي لمرور سيارة واحدة فقط للوصول الى بيت الضيافة الجميل الواقع في منطقة خالية. جرت المفاوضات التجارية مع الجانب الكوري وتحديد السلع المتبادلة دون مشاكل، وجرى الترحيب بتقديم العراق قرضا لبناء مصفاة النفط هناك على أساس استخدام النفط العراقي. وقد استرعى انتباهي أنه كلما طرحنا مسألة جديدة على طاولة المفاوضات كنا نواجه بامتناع الوفد الكوري برئاسة وزير التجارة عن الإجابة في تلك الجلسة، بل يطلب تأجيل المسألة الى يوم آخر، ما ولد الانطباع لدينا أن كل مسألة مثارة لا بد ان يبدأ الوفد ببحثها أولا في نطاق اللجان الحزبية المختصة.

مقابلة الزعيم الكوري كيم إيل سونغ

قبل التوقيع على الاتفاقية بيوم واحد أبلغنا المرافقون الكوريون فجأة بضرورة التهيؤ لأمر هام، ممتنعين عن الإجابة عن استفسارنا حول ماهية هذا الأمر وزمان حدوثه. وبعد برهة من الوقت طلبوا منا التهيؤ خلال ساعة لمقابلة شخصية رفيعة المستوى. وبعد انقضاء المهلة وتوجهنا الى السيارات علمنا أن المقصود مقابلة زعيمهم (كيم إيل سونغ). رحب بنا أجمل ترحيب في صالة بسيطة التأثيث، واقفا ببزته البسيطة الداكنة التي اعتاد عليها والابتسامة الرقيقة على محياه، مشيدا بإقامة علاقات اقتصادية متطورة مع العراق، منددا، كعادة زعماء الدول الاشتراكية، بالمخططات اللعينة للدول الإمبريالية ضد بلاده والدول المحبة للسلام.

مصنع لإنتاج الأقمشة من الصخر

في إحدى جلسات الاستراحة أثناء المفاوضات حدثني وزير التجارة الكوري عن انتاج الأقمشة من الصخر الذي لديهم. بدا الموضوع لي في غاية الطرافة ورجوته تمكيني من مشاهدة مصنع إنتاج القطن من الصخر فكان لي ما أردت. وصلنا الى المصنع المقصود الذي يقع في منطقة نائية عن العاصمة، حيث بدأت جولتنا من البوابة الرئيسية الضخمة حيث تمر منها سكة حديد لمرور حاويات القطار المحملة بالصخور القادمة من الجبال الكورية. وتتلخص طريقة العمل بنقل الصخور أولا الى أحواض واسعة عميقة، وبعد معاملتها بمواد معينة تمر بمراحل عديدة لتظهر في آخر خطوط المصنع تلال من القطن ناصع البياض ناعم الملمس، ثم يدخل بعدها بمرحلة تحويله الى خيوط دقيقة تلف على بكرات كبيرة قبل أن تتجه الى مصانع إنتاج الأقمشة. وفي آخر ركن من أركان المصنع غرفة عرض صغيرة، حيث قدم الكوريون لنا هدية فريدة : عينة من الصخر ونماذج من القطن الاصطناعي مع نماذج من الأقمشة المنتجة بألوان عديدة جميلة تلائم الرجال والنساء والأطفال. في مساء ذلك اليوم أقام لنا الجانب الكوري حفل عشاء رسمي، وأخذت مكاني بجانب نائب رئيس الوزراء حول طاولة دائرية فحدثته عن الزيارة وإعجابي بالمصنع الفريد الذي ينتج القطن الاصطناعي. وأخبرني أن هناك أربعة مصانع في العالم من هذا الطراز، واحد في كوريا، وآخر في اليابان، واثنان في الصين، وكلها تعمل بالطريقة ذاتها. وأضاف ان الأقمشة المنتجة تسد الاستهلاك المحلي وتصلح للاستخدام في مختلف الأغراض والمناسبات، ثم قال وابتسامة الفخر على محياه: «أنظر الى السيدة الوزيرة التي تجلس أمامنا على الطاولة، إن فستانها الأنيق نصفه من الصخر الكوري!».

رافقت عبد الخالق السامرائي الى الصين

على مدى عقود عديدة سبقت تفكك الإتحاد السوفييتي أواخر عام 1991 كانت غالبية دول العالم الثالث تعزز علاقاتها مع الدول الاشتراكية عموما، إلاّ أنها كانت تعطي أفضلية لأحد المحورين : محور الاتحاد السوفييتي او محور الصين. وبعد تولي البعث السلطة عام 1968 واجهت القيادة السياسية تحديات عديدة في التنمية واستثمار الثروة الوطنية. فمن ناحية كانت بحاجة الى إقامة المشاريع الكبيرة بينما لم تكن الموارد ميسرة، ومن الناحية الأخرى كانت بحاجة الى كسر السيطرة الأجنبية على النفط بينما كانت هذه المهمة طويلة وتتطلب مساندة اقتصادية وسياسية من دول صديقة. ضمن هذا الخط العام كنتُ عضوا في وفدين رسميين الى الصين، الأول برئاسة الدكتور سعدون حمادي وزير النفط والمعادن عام 1971، والثاني برئاسة عبد الخالق السامرائي في العام التالي 1972 حيث تشكل وفد كبير برئاسة السامرائي ـ عضو مجلس قيادة الثورة وعضو القيادتين القومية والقطرية ـ وكان من بين أعضاء الوفد مرتضى سعيد عبد الباقي وزير الخارجية، ومدلول ناجي المحنة وعفيف الراوي وشبيب المالكي وغيرهم من ذوي المناصب المتقدمة في الحزب والدولة، الى جانب ما يرافق مثل هذه الوفود ـ ذات المستوى العالي ـ من طاقم طبي وطاقم إعلامي. غادرت الطائرة العراقية التي أقلت الوفد بغداد باتجاه الشرق اولا حتى وصلنا الى (رانغون) عاصمة بورما، وقضاء ليلة واحدة فيها لامر ضروري، فقد وصل اليها قبلنا طاقم صيني لقيادة الطائرة العراقية.

ذلك ان الإجراءات الاحتياطية الصينية لا تسمح أن يقود الطائرة العراقية فوق الأراضي الصينية طيارون عراقيون وحدهم لأن الطيارين الصينيين يعرفون مجالهم الجوي والمسارات الواجب على الطائرة سلوكها كاجراء أمني يحظى بالأولوية القصوى. ولم تكن هذه الإجراءات غريبة عني، فقد عايشتها في السفرة السابقة مع الدكتور سعدون حمادي.

محادثات ناجحة ومفارقات عجيبة

استقبل الوفد العراقي في (بكين) بحفاوة بالغة. وسارت المفاوضات في أجواء إيجابية، وجرى تحديد الخطوط العريضة للمشاريع الإنمائية التي تعهد الجانب الصيني بتنفيذها من خلال قرض ضخم. وكنت لاحظتُ أثناء مناقشة المشاريع أن الخبراء الصينيين يبدون ملاحظات موضوعية، قائمة على معلومات دقيقة، ويقدمون اقتراحات هدفها مصلحة العراق ويطيلون النقاش حولها دون ملل. ثم زرنا ضمن برنامج الزيارات (قاعة الشعب الكبرى) او ما تسمى أحيانا (قاعة مؤتمرات الشعب)، وهي بناية ضخمة للغاية، تحتوي على قاعة رئيسية رحبة تعقد فيها مؤتمرات الحزب الشيوعي الصيني، وتعلو عليها وتطوقها شرفات من طابقين دون أعمدة، وأمام القاعة مسرح رحب جدا.

مقابلة الزعيم الصيني (شو إنلاي)

إستقبلنا رئيس الوزراء آنذاك (شو إنلاي) ببزته البسيطة رمادية اللون التي اعتاد ارتداءها، وقد ارتسم على محياه التواضع المقترن بعمق التفكير، وجلس في صدر القاعة على كرسي متواضع والى يمينه ضيفه السامرائي فيما أخذ الآخرون أماكنهم على كراس منفردة موزعة على شكل حلقات كما هو متبع هناك في مثل هذه اللقاءات. كان (شو إنلاي) يتحدث بتأن وهدوء، واضعا يده اليسرى على يده اليمنى المعاقة، معبرًا عن ترحيبه بالوفد وسروره لتطور العلاقات بين البلدين. وعندما تطرق الحديث الى (قاعة الشعب الكبرى) قال إن هذا الإنجاز المعماري الضخم وما فيه من تأسيسات تم في مدة قصيرة مذهلة بلغت عشرة أشهر فقط !

اخطبوط بحري على شكل باذنجان محشي

في حفلة عشاء أقيمت في (بكين) تكريما للوفد العراقي، كان أحد المسؤولين الصينيين جالسا بجانبي الى يساري، وعلى اليمين أخذ عفيف الراوي ـ وكيل وزارة الري ـ مكانه. نظر عفيف الى طاولة العشاء فأحصى ما على الأواني الكبيرة من أكلات لذيذة راجيا مني مناولته (باذنجان محشي) كان قريبا مني، ففعلت. وانشغل عفيف بأكله الذي أراد أن يذكره بلذائذ الطبخ العراقي. ثم انشغلت أنا بقصة طويلة رواها المسؤول الصيني بجانبي حول سوء معاملة السوفييت والغش الذي مارسوه، إذ كانوا يشحنون لهم صناديق ضخمة تحوي مكائن ومعدات. وكان الترتيب بينهما أن تحسب قيم المكائن على أساس الوزن بدلا من أساس القيمة لكل نوع من المكائن. ثم اكتشف الصينيون أن السوفييت يخدعونهم فيضعون في الصناديق أحجارا ثقيلة من أجل زيادة الوزن الى جانب المكائن، على حد ما ورد على لسان المسؤول الصيني. عندها جاءت لحظة قطعت سلسلة الحديث عندما رجاني عفيف مناولته قطعة ثانية من (الباذنجان المحشي) معبرا عن طعمه الشهي ومستفسرا عن ترددي عن أكله. عندها التفتُ الى الرجل الصيني بجانبي وسألته عما يكون هذا (الباذنجان المحشي).. فقال إن هذا ليس منتجا نباتيا بل نوع من (رأس أخطبوط البحر) !. من المعروف أن الصينيين يأكلون كل شيء تقريبا، نباتا او حيوانا، على الأرض او في الماء او الهواء. أسواق العاصمة (بكين) على سبيل المثال، تغص بأقفاص الحيوانات المختلفة، ومن بينها الكلاب التي تنتظرها قدور المطابخ. كنت أسمع قولا يردده الناس في العالم (إن الصينيين يأكلون كل ما هو طائر في الهواء عدا الطائرة، ويأكلون كل ما على الأرض ذي أرجل أربع عدا الطاولة !).

مقابلة الأمير الكمبودي اللاجئ (سيهانوك)

جرى ترتيب لقاء لنا مع (الأمير سيهانوك) بمقره في (بكين). فالصين كانت تحرص على ترتيب هذه اللقاءات، حيث احتضنته كلاجئ بعد اضطراره لمغادرة بلاده (كمبوديا). رحب بنا (سيهانوك) أجمل ترحيب، وتكلم فترة من الوقت حول أوضاع بلاده، ووجدناه شخصية متواضعة للغاية، لا تفارق الابتسامة وجهه، ثم عرفناه شخصية تحب الفنون أيضا، وقدم لكل عضو في الوفد هدية تذكارية تتضمن عددا من الاسطوانات الموسيقية من تلحينه (1).

امتعض عبدالخالق من كثرة
هدايا أعضاء الوفد العراقي

وبعد اكتمال برنامج الزيارات الطويل والتوقيع على الاتفاقية مع الجانب الصيني، تهيأ الوفد العراقي للسفر. عندها مرت حادثة تسترعي الانتباه إذ كان الكثير من أعضاء الوفد قد تجول في أسواق (بكين)، كلما أتاح الوقت لهم ذلك، واشتروا هدايا وحاجيات عديدة، ومن بينها أجهزة كهربائية كبيرة. فقد كانت العادة معروفة، حين الوصول الى بغداد، بالسماح لهذه الحاجيات والأجهزة أن تمر دون تأدية رسوم جمركية. مر عبد الخالق على الغرف لتفقد أحوال الوفد قبل السفر. ولاحظ الهدايا والأجهزة الكبيرة، فامتعض جدا من كثرتها، وعبر عن استيائه أمام أعضاء وفده وطلب على الفور من موظفي التشريفات العراقيين أن تخضع كافة المشتريات الى الرسوم الجمركية في بغداد حسب الأصول ودون استثناء. ويمكنني القول ان تصرف عبد الخالق هذا يعكس عما يعرف عنه بتشبثه اللامحدود بالضوابط والقواعد. ولم أكن ألمس مثل هذا التصرف من أي عضو قيادي آخر رغم سفراتي العديدة معهم. غادرنا مطار (بكين) بحفاوة رسمية وشعبية بالغة، حيث وقفت مجموعات من الشبان والشابات تقدم الأغاني والرقصات وسط الأعلام واللافتات. وتحركت الطائرة العراقية وعليها طاقم قيادة صيني مرة أخرى. وبعد توقف في مدينة (كانتون) الصينية وصلنا العاصمة البورمية (رانغون) حيث قضينا الليل بعد أن ودعنا الطاقم الصيني. في اليوم التالي أقلعت الطائرة من مطار (رانغون) باتجاه الغرب ، وبعد ساعات من الطيران واجهنا حالة غريبة أدخلت الرعب فينا. فكلما لمسنا شيئا في الطائرة انطلقت فورا قدحة كهربائية قوية، لا فرق ان نلمس مقعدا او حقيبة او نضع يدنا على كتاب او ورقة. انشغل فكرنا كثيرا ونحن على ارتفاع يزيد على 30 الف قدم. أعلمنا قائد الطائرة بالأمر فأخذ يهدئ من روعنا ويعتبر المسألة عادية في رحلتنا الطويلة الى بغداد. عندها قال له عبد الخالق السامرائي «لو كنتُ وحدي في الطائرة لأخذت برأيك، ولكنني لا أريد المجازفة وعلى الطائرة وفد رسمي كبير أنا مسؤول عن سلامته». طلب عبد الخالق قطع الرحلة والنزول الى مطار قريب. ولحسن الحظ كانت الطائرة قد اقتربت من العاصمة الهندية (نيو دلهي). في الأجواء أخذت الطائرة الترخيص من مطار (نيو دلهي) بالنزول لأسباب اضطرارية، وجرى اعلام السفارة العراقية هناك بالأمر. هبطت الطائرة وحمدنا الله على السلامة. وفيما كان الوفد جالسا في صالة الانتظار الرسمية، كانت الأجهزة الهندية المختصة مشغولة بالمشكلة الكهربائية في الطائرة التي تمت معالجتها بعد نحو ساعة عن طريق ازالة ما تجمع في الطائرة من شحنات كهربائية، وتنظيف الرؤوس المدببة المثبتة على الطائرة التي تتولى اخراج تلك الشحنات من الطائرة اثناء التحليق. هكذا أوضح لنا قائد الطائرة العراقية التي أقلعت بنا مطمئنين وأوصلتنا الى بغداد سالمين.

صالح مهدي عماش شخصية فريدة

يعد صالح مهدي عماش من بين أبرز الشخصيات العسكرية التي انضمت الى حزب البعث في الخمسينات، ورافق الأحداث والتطورات ـ الحزبية والسياسية والعسكرية ـ وتعرض الى المطاردة والسجن في العهود المختلفة، ولعب دورا متميزا على صعيد الحزب والدولة منذ أحداث تموز/ يوليو 1968. عماش شخصية فريدة جمعت بين الرتبة العسكرية المتقدمة ـ فريق أول ركن ـ والمكانة السياسية ـ عضو في مجلس قيادة الثورة والقيادة القطرية ـ الى جانب مهامه في الدولة نائبا لرئيس الوزراء ومشرفا على الشؤون الاقتصادية في البلاد، قبل اعفائه من جميع مناصبه عام 1971 اثر اختلافه مع صدام حسين وابعاده عبر مناصب دبلوماسية تولاها خارج العراق. ما يميز عماش عن الآخرين كونه، في الوقت ذاته، أديبا وشاعرا وهاويا لضروب الرياضة، وبساطته في المسلك والتصرف، مجاملا لغيره، لا تفارقه الابتسامة أثناء الكلام مهما كانت طبيعته، يطرق برأسه أثناء الحديث أمام المقابل بين لحظة وأخرى تعبيرا طبيعيا صادقا عن التواضع. كان ينهمك بمعالجة قضايا الناس والضعفاء انهماكه بأمور الحزب والدولة. وكم من مرة جلست أمامه في مكتبه منتظرا انتهاءه من اتصالات هاتفية يجريها في صالح هذا او ذاك. وكنتُ الاحظ أثناء توليه رئاسة الوفود الى الخارج ومقابلة رؤساء الدول لتبادل التحية طبقا لمقتضيات البروتوكولات الدولية، أن عماش لا يخطو خطوات متتالية نحو رئيس الدولة، انما يتوقف لحظات، عند منتصف المسافة، ويحني رأسه قليلا تعبيرا عن احترامه لرئيس الدولة او يؤدي التحية العسكرية ان كان رئيس الدولة شخصية عسكرية، قبل مواصلته الخطوات لاتمام المصافحة. لم أر في طبيعة عماش تصميما ذاتيا لكسب موقع في قمة الحزب والدولة، وهو ما كان متماشيا مع تواضعه والتزامه بالمعايير الحزبية، ما جعل الانقضاض عليه في نهاية الأمر سهلا وغير محفوف بالمخاطر. وبسبب اشراف الرجل على الشؤون الاقتصادية في البلاد حتى تاريخ اعفائه، ونتيجة لطبيعته الانسانية البسيطة، فقد رافقته زميلا وصديقا سنوات عدة، وأتاحت تلك العلاقة أن أشهد معه، رحمه الله، أحداثا متنوعة وأسمع قصصا لم ترد على لسان غيره.

اعتراف العراق بجمهورية المانيا الديموقراطية

بعد أحداث تموز (يوليو) 1968 كان توثيق العلاقات مع دول الكتلة الاشتراكية يمثل أحد أركان سياسة العراق الخارجية، فيما استمرت العلاقة مع جمهورية ألمانيا الديموقرطية في فترة الأشهر التسعة التالية مقتصرة على تمثيل قنصلي. وكان معروفا أن ألمانيا الديموقرطية استمرت تكافح، منذ تأسيسها بعد الحرب العالمية الثانية، في جعل اعتراف دول العالم بها اعترافا دبلوماسيا كاملا هدفا دائما فيما كان خصمها ـ ألمانيا الغربية ـ يمارس مختلف الضغوط على دول العالم للحيلولة دون ذلك.

وفيما كان مجلس قيادة الثورة يتدارس مساء أحد أيام ربيع عام 1969، على مهل، مسألة الاعتراف بألمانيا الديموقراطية، اتصل بي صالح مهدي عماش، حيث كنتُ وزيرا للاقتصاد، طالبا حضوري الى المجلس الوطني لملاقاته، من دون الافصاح عن شيء، لأعلم حين اللقاء أن الغرض يكمن في تكليفي بأعمال الترجمة من العربية الى الألمانية وبالعكس للحديث الذي سيدور بعد قليل بين عماش وقنصل ألمانيا الديموقراطية في بغداد المستدعى الى المجلس الوطني. وفي الدقائق القليلة التي سبقت وصول الدبلوماسي الألماني أخبرني عماش أن موضوع الحديث مهم، وقد اختارني للترجمة بسبب الطبيعة السرية التي يتسم بها. حضر القنصل وحيّانا بكل أدب واحترام، لنجلس نحن الثلاثة في وضع بعيد عن المظاهر البروتوكولية، ليبدأ عماش بحديث ما خلاصته ان العراق راغب في الاعتراف بجمهورية ألمانيا الديموقراطية اعترافا دبلوماسيا كاملا، وراغب كذلك في أن يقترن الأمر بتعاون اقتصادي وفني واسع، مشيرا الى رغبة العراق في الحصول على قرض ضخم تمنحه ألمانيا الديموقراطية دون فوائد لتمويل مشاريع التنمية العراقية وفي مقدمتها الصناعية، التي يجري تحديدها فيما بعد ضمن اتفاقية التعاون.

وأبرز عماش في حديثه جانبا مهما يتمثل بأن العراق، باعترافه بألمانيا الديموقرطية، سيكون السبّاق في العالم العربي بهذه الخطوة التي ستشجع دولا عربية أخرى للحذو بها. كنتُ أترجم الى الألمانية مقطعا بعد مقطع فيما كان القنصل يدون على ورقة بين يديه النقاط الواردة لحين انتهاء عماش، حيث التقط الدبلوماسي الألماني الكلام شاكرا لهذا اللقاء الودي وطبيعته المسرة واعدا بنقل الموضوع الى الجهات الرسمية في بلده. وقبل أن ينصرف المسؤول الألماني كان عماش أكد أكثر من مرة على سرعة الاجابة. حين حلّت الخلوة بعد دقائق سرّني عماش بظروف المسألة المستعجلة قائلا ان مجلس قيادة الثورة لم يكن على عجالة في حينه، الآن شخصا موثوقا تحدث الينا بعد احتكاكه بالجهات الرسمية العليا في دمشق، ذاكرا بصورة عرضية، أن سورية تعد العدة للاعتراف بألمانيا الديموقرطية. وكان هذا الخبر، حسب قول عماش، الدافع لمجلس قيادة الثورة للاسراع بالاعتراف قبل أن تخطوها سورية، ما سيوفر أرضية جيدة لحصول العراق من ألمانيا الديموقراطية على قرض كبير ومعونة فنية. في ضوء ذلك اعترفت الحكومة العراقية اعترافا دبلوماسيا كاملا بجمهورية ألمانيا الديموقراطية في شهر ايار/ مايو 1969، وتم ابرام اتفاقية التعاون الاقتصادي والفني بينهما في برلين أواخر الشهر ذاته، حيث قدمت ألمانيا الديموقراطية بموجبها قرضا ضخما بقياس ذلك الزمان يبلغ 30 مليون دينار ـ ما يعادل 84 مليون دولار حينها ـ بشروط سخية لتمويل المشاريع في العراق، متمثلة بمعدل فائدة 2,5 بالمئة وسداده بالنفط والمنتجات العراقية الأخرى خلال فترة 12 عاما، فوقعها عن الجانب العراقي وفد برئاسة خالد مكي الهاشمي وزير الصناعة آنذاك.

في براغ .. مطارحات شعرية بين عماش والجواهري

في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 1969 كنتُ مع عماش في «براغ» عاصمة تشيكوسلفاكيا السابقة ضمن وفد رسمي برئاسته وعضوية الدكتور رشيد الرفاعي وزير النفط والمعادن والدكتور سعدون حمادي رئيس شركة النفط الوطنية آنذاك فيما كان أبرز مهام الوفد محصورا بمشروع مصفاة النفط الكبرى في البصرة.

وأثناء اقامة الوفد وصل الى أسماع عماش وجود الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري في براغ في ظروف معيشية صعبة ورغبته في لقائه في دار الضيافة الرسمية، فاستجاب بسرعة لهذه الرغبة، مصرا على عدم تكليف الجواهري بتجشم عناء المجيء الى دار الضيافة ومفضلا في الوقت ذاته ملاقاة الجواهري في المقهى ذاته الذي كان شاعر العرب معتادا على التردد اليه.

وكان عماش دعاني والرفاعي وحمادي لمرافقته في هذه الزيارة التي كنا في شوق لها، واخذنا أماكننا مع الجواهري عند طاولة واحدة في ذلك المقهى البسيط المكتظ بالزوار وحركة عاملاته الحسناوات. كانت الجلسة شبيهة بأجواء اللقاء العائلي من حيث البساطة والتواضع، عرج الحديث خلالها على حياة شاعرنا الكبير وهمومه في هذه المدينة العريقة، أما عماش فقد بدأ يقرض أبيات قصيدة شارك الآخرون في استكمال مفرداتها، وكلما تعذر انجاز بيت منها وجدت الجواهري يهب فورا بانقاذ الموقف معنى ووزنا حتى نُظمت قصيدة من نحو 20 بيتا في وصف الناس ونصفهم الحلو، قصيدة تولى تدوينها الدكتور الرفاعي ووعد بتزويد كل منا بنسخة منها لكنه لم يف بذلك حتى اليوم!

اختلاف حرف في الترجمة كاد يسبب مشكلة

خلال وجود صالح مهدي عماش والوفد المرافق له في تركيا لتوسيع العلاقات الاقتصادية بين البلدين دعانا وزير الخارجية التركي الى حفل عشاء مختصر في فندق أنيق بعيدا عن وسط العاصمة أنقرة، وكنتُ في حينه وزيرا للاقتصاد والى جانب الدكتور رشيد الرفاعي وزير النفط والمعادن والدكتور سعدون حمادي رئيس شركة النفط الوطنية كما نشكل أعضاء الوفد. وبعد تناول الوجبة اقترح الوزير التركي جلوسنا في الشرفة للتمتع بالهواء العليل ومنظر الطبيعة الجميلة. واستجبنا حيث بدأنا بتجاذب أطراف حديث مشوق بعيدا عن جدول المفاوضات. لكن بعد أن تطرق النقاش الى بعض المسائل العالقة أشار الوزير التركي الى كلمة تركية مأثورة يتداولها الناس تقول « تهون الأمور كلها مع تناول القهوة وتدخين السيجارة»!. فما كان من الرفاعي الآن أضاف عليها عبارة «ووجوه الحسان المحيطات بالجو». لكن ما لفت انتباهنا ظهور علامات العجب والحيرة على ملامح الوزير الأمر الذي جعلنا نقطع بحدوث خطأ ما في الترجمة. وبالفعل تبين بعد لحظات ان أذن المترجم التقطت كلمة «حصان» بدل حسان المعنية فوقع الخطأ وظهر العجب!. فجاء تعليق عماش بحمد الله على أن الخطأ صادف في جلسة مرح وليس لقاء عمل رسمي وانه قاد الى «حصان» ولم يذهب الى شيء آخر!

في باريس .. الحيطة من أجهزة التنصت

كنتُ في مهمة رسمية في باريس حين التقيت عماش الذي كان في حينه سفير العراق هناك. وعقب تناولنا الغداء على انفراد في داره، اقترح الخروج الى الحديقة الواسعة المحيطة بداره، وأخذنا نقطع الخطوات على مهل فيما انطلق عماش بحديث عن همومه وموقف رفاقه.

ونوه بطريقة المداعبة، بعد أن قرأ على وجهي استفسارا، تجنبه الحديث في هذه المسائل في داره لتشككه في احتمال وجود آذان صاغية، ففهمت المغزى المتجسد في أجهزة التنصت. وكعادته الدائمة لم يكن عماش يترك لقاء من هذا النوع يمضي دون مسرة ودعابة.

وكان معروفا أن السفارة العراقية اعتادت تجميع التلاميذ العراقيين الراغبين في أداء الامتحانات النهائية وحيث كانت الأسئلة ترد موحدة مختومة من بغداد. فلفتني قوله ان نسبة النجاح في المدرسة العراقية التابعة للسفارة بلغت في ذلك العام 100 بالمئة فهنأته على هذا الانجاز، لكنه بادر الى القول «لكنك يا دكتور لم تسأل عن عدد التلاميذ الذين شاركوا في الامتحان، لقد بلغوا تلميذا واحدا فقط!، الله جابهه ويّاه ونجح!».

الهوامش:

(1) تجدر الاشارة الى انه بعد مرور أكثر من عقدين من الزمن على اللقاء في (بكين) مع الأمير اللاجئ (سيهانوك) تمت اعادة تنصيبه ملكا على بلاده وفق دستور جديد عام 1993، ثم أعلن الملك (سيهانوك) عام 2004 عن رغبته في التنازل عن عرشه.

* كاتب عراقي يقيم في بريطانيا

شو إن لاي يستقبل الوفد العراقي لعقد اتفاقية التعاون الاقتصادي والفني، على يمينه سعدون حمادي ـ رئيس الوفد ـ ثم وزير صيني ثم قدوري